"فرانتز فانون والثورة الجزائرية"
-من مجال التأثر إلى نطاق الممارسة-

د. قوعيش جمال الدين - الجزائر- 3 -
أستاذ محاضر بالمدرسة الوطنية العليا
للصحافة وعلوم الإعلام/ الجزائر

الملخص

عرفت الثورة الجزائرية شهرة إقليمية ودولية واسعة النطاق، خاصة بعد اعتراف جل الدول كاملة السيادة بمشروعيتها، على غرار مساعدة كبار المؤرخين والمفكرين في العالم، أبرزهم كان فرانتز فانون الذي دعا إلى مساندتها في الكثير من المناسبات الرسمية، بل وقد قام باتصالات مع أبرز روادها عارضا عليهم مساندته المطلقة لها ولمشروعيتها. بل وقد أكدت مقالاته المنشورة في الكثير من الصحف الجزائرية وغير الجزائرية على إيمانه العميق بأهداف هذه الثورة التي غيّرت الخريطة الجيوسياسية آنذاك. لقد انطلق فانون من منطلق التضامن الثوري بين الشعوب المستعمرة من قبل فرنسا على وجه الخصوص، وهي في غالبيتها شعوب إفريقية وآسيوية.

حاول فانون التنظير للثورة الجزائرية في إطار التاريخ المعاصر، ورغم انتمائه للفكر الشيوعي وإيمانه المطلق بالفكر الماركسي، لم يتناسى المبادرة الفردية لهؤلاء الشباب الذين فجّروا أكبر ثورة في شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن الماضي، كما لم ينسى أصوله الإفريقية ودفاعه عن الأقليات السود في العالم أجمع، فهو كغيره من المناهضين للتمييز العنصري والداعين للحوار ما بين الشعوب والأعراق في إطار ثقافة التسامح ونبذ العنف بأشكاله المختلفة، والتحاور مع الرؤساء والحكام في إطار مبادئ العدل والمساواة. لقد دافع فانون عن الشخصية الوطنية الجزائرية بأبعادها الثلاث: العروبة والأمازيغية والإسلام، بل وذهب أبعد من ذلك، عندما دافع عن استقلال الجزائر استقلالا مطلقا، لأنّ الدولة الجزائرية وجدت قبل الوجود الفرنسي، فما الثورة الجزائرية، حسب وجهة نظره، إلاّ امتداد للدولة الجزائرية الأصيلة التي بنيت قبل وجود الأمبراطورية العثمانية بعقود كثيرة. وهو ما جعله في جميع كتاباته الصحفية وغير الصحفية يؤمن بضرورة تحقيق الأهداف الأولى للثورة الجزائرية المتمثلة في إعادة بناء التاريخ من جديد؛ أي بناء الدولة الجزائرية الحديثة.

Résumé

La révolution algérienne à connue une gloire régionale et internationale d'une grande envergure, surtout après la reconnaissance de la plupart des pays d'une souveraineté complète de sa légitimité, comme le soutien des grands historiens et penseurs dans le monde, principalement était Frantz Fanon qui a appelé a son soutien(la révolution) dans plusieurs occasions officielles, même il a lié des contacts avec ses pionniers les plus importants, en leur présentant son soutien absolu pour elle et pour sa légitimité. Plus que ça, ses articles publiés ont confirmés dans divers journaux algériens et non algériens sa profonde croyance en les objectifs de cette révolution qui a changé la carte géostratégique depuis. Fanon est parti depuis la solidarité révolutionnaire entre les peuples colonisés par la France en particulier, et se sont des peuples dans leur majorité africains et asiatiques.

Il a essayé de mettre une théorie pour la révolution algérienne dans le cadre de l'histoire contemporaine, et en dépit de son appartenance à l'idéologie communiste et sa croyance absolue de la pensée marxiste, il n'a pas oublié l'initiative personnelle pour ces jeunes qui ont menés la plus grande révolution dans le nord de l'Afrique en la seconde moitié du siècle dernier, en plus il n'as pas oublié ses origines africaines et sa défense des minorités noires dans le monde entier, parce que lui comme les autres qui sont contre la ségrégation raciale, appelant au dialogue entre les peuples et les races dans le cadre de la culture de la tolérance et le renoncement de la violence sous ses diverses formes, et le dialogue avec les présidents et les leaders dans le cadre des principes de la justice et la légalité. Fanon a défendu la personnalité nationale algérienne avec ses trois dimensions : l'arabisme et l'amazighité et l'islam, il a même aller au-delà, lorsqu'il a défendu l'indépendance de l'Algérie une indépendance absolue, parce que l'Etat algérien a existé avant la présence française, parce l'Etat algérien, suivant son point de vue, n'est qu'une prolongation de l'Etat algérien original qui s'est construit avant la présence de l'Empire ottoman en plusieurs décennies. Ce qui l'a rendu dans tous ses écris journalistiques et non journalistiques croyant en la nécessité de réaliser les premiers objectifs de la révolution algérienne qui sont reconstitution de l'histoire de nouveau ; c'est-à-dire la construction de l'Etat algérien moderne.

Les mots clés : Frantz Fanon, la révolution algérienne, le peuple algérien, l'indépendance nationale, l'histoire commune.

مقدمة

شهد القرن العشرين للميلاد ثورات عديدة عبر أنحاء المعمورة، وقد أسهمت كل منها بنصيبها من الخبرات والدروس، سلبية كانت أو إيجابية، حيث مكّنت الثوار من بناء مجتمعاتهم فيما بعد. كما كان لكل ثورة أيضا سماتها الفريدة التي لا تظهر أبدا مرة ثانية، ولا حتى في نفس البلد، وبالأحرى في غيرها.

وفي الحديث عن الثوار ومنظري الثوار يحضر اسم فرانتز فانون، حيث تكشف لنا قراءة مختلف كتبه حول الثورات في إفريقيا عموما والثورة الجزائرية خصوصا، عن مواقفه وتفكيره خلال مرحلة تكوينه الأولى، وقبل انضمامه للثورة الجزائرية.

ذلك لكي نفهم مدى التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في فانون؛ أي في نفسيته وفي تفكيره، لا بد أن نقرأ كتاباته المختلفة، أو حتى نعيد قراءتها حسب تاريخ صدورها أولا بأول، فإنّ مثل هذه القراءة ضرورية لكي نلمس هذا التأثير أولا، ولكي نعرف مداه ثانيا، ولكي نستجلي بعد هذا وذاك المراحل المختلفة التي مرّ بها تفكير فانون منذ 1952م إلى غاية 1961م: أي منذ صدور كتابه الأول إلى صدور كتابه الأخير، مرورا بكتاباته في «المقاومة الجزائرية» وفي «المجاهد» ابتداءا من عام 1957م.

مثل هذه القراءة التي تراعي التسلسل التاريخي، هي قراءة جد ضرورية لتتبع الخط البياني لتفكير فانون الأصيل، خصوصا وأنّ القدر المشترك من العنف في كتاباته قد يجعل الأمر يختلط علينا، فلا نحاول تصنيف ألوان العنف القانوني من جهة، ولا نحاول من جهة أخرى تبيّن المواقف الفكرية التي تختلف، وأحيانا تتناقض من مرحلة لأخرى.

وهكذا فإنّ فانون، بطريقته النموذجية، تجرفه بلاغته وتعطشه الكبير إلى التغيير الثوري، فيلقي بالطفل مع ماء الاستحمام. إنّه في لحظة يطلب «العون» الذي لا غنى عنه من الشعوب الأوروبية.، وفي اللحظة التالية يترك انطباعا بأنّنا لن نتعلم شيئا من أوروبا، وأنّ «مفهومات جديدة» ينبغي أن تصاغ، و»إنسانا جيدا» ينبغي أن يخلق، غير أنّ المفهومات الأساسية قائمة بالفعل، مفهومات هذه الاشتراكية ذاتها التي اختارها فانون، وهي مفهومات نشأت أول ما نشأت في القارة الأوروبية، سواء في مجال النظرية أو التطبيق.

لقد حدد فرانتز فانون خياره بين القطيعة مع الماضي الجزائري وما يترتب عن ذلك من الاستقرار وسط جهاز استعماري مجدد، لكنّه مستمر، وبين الوفاء لأمة جزائرية وقعت مؤقتا في براثن الاضطهاد، فاختار أنّه لا وجود لذاتية جديدة تولدت عن الاستعمار، إنّ الشعب الجزائري لم يقبل بأن يتحول إلى «تعاون». إنّ فرنسيي الجزائر لم يتعايشوا مع الشعب الجزائري، ولكنّهم، بالمقابل، سيطروا عليه، لذلك كان لزاما منذ البداية إشعار الشعب الفرنسي بمدى مطالب أفراد هذا الشعب. إنّ جبهة التحرير لم تتلاعب بالكلمات أو المبادئ، فقد قالت أنّ هدفها هو الاستقلال، وأنّه لا مكان لأيّ تنازل بهذا الهدف.

وفانون، كما سنرى، واضح في إنكار كل ما من شأنه تبرير الاستعمار، كما هو واضح في اعتبار الأمة الجزائرية موجودة من قبل الاحتلال الفرنسي. وهذه هي نفس نظرية الحركة الوطنية الجزائرية قبل الثورة.

◄ 1- فرانتز فانون: النشأة وظروف العصر:

في مدينة فور-دو-فرونس(Fort-de-France) بجزيرة لامارتينيك(La Martinique) كان مولد فرانتز فانون(Frantz Fa-

non)[1925م-1961م] كان مولده. وكان حفيدا لأولئك الرقيق الذين حملوا منذ قرون إلى جزر الأنتيل من أدغال إفريقيا، وكانت هذه الجزيرة تشكّل مع جزر الأنتيل(les Antilles) الصغرى منطقة شملتها السيطرة الفرنسية من القرن 17م، ونظرا إلى أنّ السكان الأصليين لهذه الجزر قد أبيدوا لأنّ الأوروبيين كانوا يرتفعون عن العمل في مزارع قصب السكر، فقد ازدهرت تجارة الرق لتزويد المعمّرين البيض بما يحتاجونه من أيد عاملة.

ظلّ أبناء الأفارقة الذي استقروا بالجزيرة يعانون من الاضطهاد، ويقومون من حين لآخر بثورات تقمع بشدة، ومع قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة وظهور النظريات الاندماجية توقف ذلك التطور، وراح السكان يحلمون بالمساواة المطلقة مع الأوروبيين. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي ساهم فيها سكان جزيرة لامارتينيك إلى جنب سكان جميع المستعمرات الفرنسية، اتّخذت بعض التدابير بهدف إيجاد تقارب سطحي بين وضعية سكان الجزيرة وسكان «الوطن الأم» (La métropole). وقد أدى ذلكن بالإضافة إلى محاولة «النخبة» المارتنيكية التنكر لماضيها ولزنوجتها، إل نوع من عرقلة الكفاح الشعبي المشروع.

خلال هذه الحقبة من حياة الجزيرة ولد فرانتز فانون، وكان أبوه موظفا بالجمارك، وهذا المنصب يعتبر وضعا امتيازيا بالنسبة للعامل الزراعي.

ومع تردد فانون على المدرسة الفرنسية تعزز نفوره من اللهجة المحلية وانفتحت عيناه على القيم البيضاء، ممثلة في أبطال من أمثال «شارلمان»(Charlemagne)، «جان دارك»(Jeanne D'arc) و«لامارتين»(Lamartine)....

نفس الشخصيات التي كانت دروس التاريخ الفرنسي تفرض معرفتها على السكان الوطنيين في جميع أنحاء المستعمرات. وخارج المدرسة كان البيض، وهم بضعة آلاف من بين مائتي ألف، يفرضون سيطرتهم على الجزيرة، فيحتفظون بمزارعهم على الشياع، ويتزوجون فيما بينهم، ويتبادلون العون ويحتكرون أرباح صناعة السكر، ويسيطرون على البنوك ومعظم النشاطات التجارية. لكن على الرغم من وجود ألوان متعددة من التمييز العنصري في جزر الأنتيل التابعة للاستعمار الفرنسي، فقد نشأت ما يمكن أن تسمّى بـ«البورجوازية الزنجية» التي كانت تبحث عن الاندماج والذوبان في المجتمع الفرنسي، أكثر ممّا تفكر في الاستقلال الوطني.

إلى هذه الفئة تنتمي أسرة فانون؛ فقد تمكّن خمسة من بين ثمانية أولاد –من ضمنهم فرانتز– من متابعة دراستهم العليا في الجامعات الفرنسية، وهو أمر له دلالته في الكشف عن الوضع الاجتماعي لأسرة فانون، خصوصا إذا عرفنا أنّ هذه الجزيرة التي تعتبر فرنسية كاملة، كانت تعد عام 1970م ثلاثين بالمائة من الأميين. فكيف كان الحال في الثلاثينات عندما كان فرانتز وإخوته يتابعون دراستهم الابتدائية.

وقد أدى تطور هذه البرجوازية المحلية إلى وجود نوع من شعور التفوق عند الأنتيلي بالنسبة لزنوج المستعمرات الأخرى. كما زاد في تعميق الشعور بالفرق بين زنجيا المارتنيك والزنجي الإفريقي، حيث أنّ الديانات التي حملها أسلاف فانون قد «زالت»، وحلّت محلها الشعائر المسيحية، وكان رجال الدين الكاثوليك في الجزيرة يضعون أنفسهم في خدمة المحتل، ولا يسمحون ببروز أيّ وعي بالشعور القومي. وقد تعزز موقف هذه البرجوازية مع احتفال باريس سنة 1935م بمرور ثلاثمائة سنة على دخول جزر الأنتيل تحت السيطرة الفرنسية. وتمت تلك الاحتفالات تحت شعار «ذكرى الروابط مع المستعمرات القديمة» التي أعطتها فرنسا أحسن خصال عبقريتها. وهكذا

شهدت الجزيرة، وخصوصا بعد الحرب العالمية الأولى استقرار حالة سلبية من القبول بالأمر الواقع، حلت محل ضروب الكفاح التي عرفتها في القرن الماضي. وفعلا، فإنّ القرن التاسع عشر كان عامرا بالاضطرابات التي تكشف عن وجود رغبة عميقة في التحرر من الاستعمار: ففي سنة 1822م جرت اصطدامات دموية وحوادث عنف في جزيرة لامارتينيك، وعندما كانت باريس تتأهب للتوقيع على المرسوم الذي يلغي الرق، انتشرت الاضطرابات في كامل أنحاء الجزيرة[1].

وتصور السكان المحليون أنّ إلغاء الرق في 27 أفريل 1848م قد وضع حدا لمتاعبهم، وأنّهم ربحوا إلى الأبد معركة الكرامة، لكن سرعان ما انكشفت الحقيقة: لم تتغيّر الأوضاع الاقتصادية، وظل الزنجي، رغم تحرره لا يملك من مورد للرزق سوى العمل في مزارع السكر، ونستطيع أن نتصور بسهولة وضعية أولئك العمال المزارعين في القرن الماضي.

ورغم ذلك، لم تنقطع الاضطرابات؛ فقد اندلعت حوادث عام 1870م في جنوب المارتينيك وأضرمت النيران في أربعين مزرعة، وكان ذلك مظهرا من مظاهر الثورة على التطور الجديد الذي حدث في المجال الاقتصادي مع تحول زراعة السكر التقليدية إلى زراعة أحدث ذات معامل ميكانيكية.

إلاّ أنّ ذكريات هذا الكفاح المرير أصبحت باهتة مع صعود موجة المستفيدين من ''الاندماج''. بل أنّ فئة الموظفين المارتنيكيين(التي تنتمي إليها أسرة فانون) كانت تتحدث عن زنوج إفريقيا بنفس اللهجة التي يتحدث بها الأوروبيون، أو تقريبا. كان الأنتيلي يعتقد أنّه متفوق على الأفريقي، بل كان متأكدا، زيادة على ذلك، من وجود فرق جوهري بين الإفريقي والإنتيلي. وكان التقليد المعمول به في فرنسا، عند تقديم شخص إنتيلي في مجتمع باريسي راق، هو التنصيص على أنّه ''إنتيلي من أصل مارتينيكي''. وكان الإفريقي في نظر المارتينكيين هو الممثل الحقيقي للعرق الزنجي، وإذا حدث أنّ معمرا طلب مجهودا كبيرا من عامل مارتينيكي، فإنّ هذا كثيرا ما يرد عليه بالقول: ''إذا أردت زنجيا فابحث عنه في إفريقيا''، ما يدل على أنّ العبيد والذي يقومون بالأشغال الشاقة يؤتى بهم من هناك...

ذلك هو الوضع الذي كان خلاله فانون يواصل دراسته الابتدائية، وجزءا من دراسته الثانوية. لكن هذا الوضع دخل عليه تغيير مع قيام الحرب العالمية بفعل وجود عدة عوامل، وصفها فرانتز فانون بشيء من الإسهاب في مقال نشر له في مجلة ''فكر''(Esprit) الفرنسية سنة 1955م. ونظرا إلى أنّ هذا المقال يتناول بالتحليل حقبة كانت تعتبر حاسمة في توجيه فانون سياسيا وفكريا، فإنّنا نستطيع أن نعتبره لونا من السيرة الذاتية، كتبها فانون للكشف عن تطوره الفكري إلى عام 1955م[2].

وكان اكتشاف الزنوجة لفانون بداية لعهد جديد، ونظرا لكونه ميالا إلى العمل، فهو لم يكتف باتّخاذ موقف نظري عاطفي لتأكيد زنوجته، بل راح يفكر في وسيلة للخروج من الجزيرة والالتحاق بقوات الحلفاء، إذ يجب أن يعطي درسا لهؤلاء البيض العنصريين الذين تجرؤوا على النيل من إحساسه.

وفعلا، فقد التحق بجمهورية الدومينيك(république dominicaine) في نهاية 1943م. لكن هل كان ذلك بدافع وطني أم حضاري، كما يفهم من إشارته لهذه النقطة في كتابه 'بشرة سوداء أقنعة بيضاء'(Peau noire masques blancs)[3]، حيث أكد أنّه التحق بفرنسا الحرة استجابة لنداء الواجب والضمير بوصفه فرنسيا؟ أم هل كان ذلك إشباعا لغرض شخصي وعائلي لتيار محلي شمل أسرته فيما شمل؟ ومنه، راح

فرانتز فانون يتطلّع إلى إفريقيا، باحثا عن أصوله الزنجية، وقد وضع فيها كل آماله، وعزز ذلك التطلّع المشحون بعظام الآمال، تلك المغامرة التي أقدم عليها، حيث كان يتابع دروسا عسكرية في مدينة بجاية بالجزائر تؤهله ضابطا. وباشر مهمته الجديدة في صفوف الجيش الفرنسي إلى أن أصيب بجروح في معارك قرب الحدود السويسرية، وعند نهاية الحرب العالمية الثانية(1939م-1945م) كان فانون موجودا في ألمانيا، ثم غادرها عائدا إلى وطنه الأم(جزيرة لامارتينيك) ليسهم في حملة انتخابية تهدف إلى إنجاح إيمي سيزار(Aimé Césaire [1913م-2008م][4] ضمن قائمة المرشحين الشيوعيين، لأول مجلس وطني للجمهورية الفرنسية الرابعة.

لكن التطلّع إلى الأصول الإفريقية البعيدة ووضع كل الآمال في هذا التطلّع، يعني البحث عن حل في إطار إفريقي، وذاتية إفريقية-زنجية متميّزة عن الإطار الفرنسي، لكن لصالح أيّة جهة يمكن أن يحل التناقض في تصور فرانتز فانون؟

وفي المحيط العالمي، هاهي بوادر التحرر تظهر في الأفق: ففيتنام تخوض غمار حرب غير متكافئة، لكنّها مع ذلك تهز العملاق الاستعماري. وفي المستعمرات الفرنسية بإفريقيا تظهر سياسة الاندماج على حقيقتها: فكائن المستعمرات لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الفرنسي الحق، اعتبارا وحقوقا.

لكن ذلك لم يصرفه تماما عن التوجّه نحو إفريقيا، فقد أنهى دراسته الطبية في نهاية 1951م، وبعد زيارة إلى الوطن الأم، عاد إلى فرنسا حيث اشتغل في مصحة، ثمّ منها بمستشفى للأمراض العقلية بالبليدة عام 1953م، الذي يعتبر أهم مستشفى من نوعه في إفريقيا. وهناك كان يشرف على قسم يوجد به مائة وخمسة وستون أوروبيا وفقط مائتا جزائري، فحاول تطبيق طريقة متميّزة في العلاج الاجتماعي، لكنّه سرعان ما اصطدم بصعوبات كثيرة، لأنّ الأساليب التي جرّبت مع الأوروبيين لا يمكن أن تنجح مع مرضى جزائريين، تختلف بيئتهم الاجتماعية عن البيئة الأوروبية. وشيئا فشيئا، اكتشف فانون أنّ هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل وأوضاع سياسية، كما اكتشف عوامل الجنون التي ترجع إلى الوضع السياسي للسكان المحليين؛ أي أصناف المرض العقلي التي تسبب فيها الاستعمار. وليس من المستبعد أن تكون تجربة فانون كطبيب نفساني في الجزائر، وخاصة بعد دراسته لحالات المرض بعد قيام الثورة المسلحة، قد كشفت له عن انسداد الطريق الفرنسي بالنسبة لحل المشاكل المتولدة عن الاستعمار. وقد استخلص النتيجة من ذلك، فكان انضمامه إلى الثورة الجزائرية بمجرد اندلاعها سنة 1954م[5].

كانت الثورة الجزائرية عندما انضم إليها فانون قد تجاوزت النطاق المحلي، وأصبحت موضوع تعاليق السياسة والدبلوماسية في أنحاء العالم، وفي مقدمته البلدان الإفريقية. وقد ظهر اهتمام الأفارقة بهذه الثورة في أشكال مختلفة، تمثلت أحيانا في قيام بعض المناضلين بالاتّصال بقيادة جيش التحرير يطلبون منها المساعدة حتى يتمكّنوا من الإعداد للثورة المسلّحة في بلادهم. وقد لمس فانون خلال اشتغاله بجريدة 'المجاهد' هذا الجانب في الثورة الجزائرية وهو انفتاحها على إفريقيا. ولا شك أنّ ذلك قد أعاد إلى ذهنه من جديد تلك المشكلة التي كانت واجهته في خضم الحرب العالمية الثانية عندما عرف حقيقة «الخطأ الأبيض الأكبر»، وراح يبحث عن حل بديل في الأصول الإفريقية البعيدة. ومع تطور الكفاح المسلح في الجزائر، وتطور رد الفعل الاستعماري ضده، تأكدت حقيقتان: التضامن الفعلي بين ألوان الاستعمار ومراكزه، وضرورة التضامن بين الشعوب المضطهدة.

وفي الوقت الذي بدأت فيه بعض البلدان الإفريقية تفكر في استلهام التجربة الجزائرية لخوض غمار معركة مسلّحة، كانت الأجهزة الاستعمارية الفرنسية تشتغل لفصم التضامن الطبيعي لإفريقيا السوداء مع الجزائر، وتخيط مخططات الاستعمار الجديد لتحل محل الاستعمار القديم في إفريقيا.

◄ 2 – نظرية فانون حول الثورة وتاريخها:

تترك كتابات فانون انطباعات مختلفة، وبخاصة لأنّ جانبا كبيرا من جهده موجّه لمهاجمة نواقص المثقفين الوصوليين الأفارقة، حيث يقول في كتابه ‹بشرة سوداء، أقنعة بيضاء›: «الأسود هو رجل أسود؛ بمعنى لصالح مجموعة من الانحرافات العاطفية، استقر في عالم أين يجب إخراجه فعلا»[6].

لكنّنا إذا أخذنا أفكار فانون ككل، سيتّضح أنّه يتوقع أن يبرز من بين صفوف المثقفين الأساسية –الذين يرى أغلبهم انتهازيين– عدد يتولون قيادة الثورة. وعلى أيّ حال فلمن كان فانون يكتب؟ إنّه إسم يكتب بالتأكيد للعمال الذين يحتقرهم، ولا لفلاحيه وحثالته الأميين في أغلبهم.

لقد توصّل فانون، وغيره من منظري الثورات المعاصرة[7]، إلى نتائج حاسمة في كثير من المسائل الأساسية للنظرية الثورية، ولا سيما عن دور الطبقات في العالم الحديث، وتقديره للأحزاب الشيوعية. فهو يتحدث عن توسّع المدن والتقدم التكنولوجي والمزايا المادية للشعب العامل. فالمدينة عنده مصدر للفساد والتدهور، حيث يجد أنّ القوة الجماهيرية الثورية المحتملة الوحيدة في المدن هم نفاية المجتمع، حثالة البروليتاريا، العاطلين وغير القابلين للعمل، وكذلك الأقليات السود في الولايات المتحدة(وفي الدول الغربية أيضا في الوقت الحالي). ويأمل فانون أن يتوجّه المناضلون من المدن الإفريقية إلى الريف لتنظيمه، وتحليله يتضمّن المفهوم القائل بأنّ مثقفي المدينة هو الذين سيلعبون الدور القيادي. ونزعة الصفوة المثقفة هذه، أو وصاية المثقفين من غير أبناء الطبقة العاملة، لا يجمعها شيء بمفهوم الحزب الطليعي، والقائم أساسا على الطبقة العاملة.

إنّ فكرة العنف عنصر رئيسي في فكر فانون، وهي مسألة يمكن أن تثور في مراحل مختلفة من النضال الثوري، ولن يحفل ثوري من مثل هذه الضرورة، وبخاصة إذا أدرك أنّه على الشعب العامل أن يكون مستعدا على الدوام لممارسة عنفه بكل الوسائل الضرورية لكي يتغلّب على عنف الطبقة الحاكمة، أو احتمال لجوئها إلى العنف.

غير أنّ العنف لديه ليس مجرد وسيلة لغاية، وإنّما هو تجربة ضرورية في ذاتها، العنف هو التحرر، هو النار المطهرة التي تختبر الثوار وتنقيهم، فممارسة العنف عند فانون هي التي تجعل الفلاح المستعمر(بفتح الميم) الذي طال خضوعه يتغلب على خوفه من العدو، ويكتسب الاستعداد للمشاركة في التغيير الثوري[8].

ومنه، فهو يزدري المؤسسات القائمة، ولا يرى داعيا لأن يعمل الثوار في إطار مثل هذه الأجهزة، ولو لفضحها واستغلالها كمنبر سياسي. وهو يبدي نوعا من العداء تجاه تنظيمات الطبقة العاملة، ولا سيما النقابات، حيث يذكر مثلا في كتابه ’من أجل ثورة إفريقية‘ : «يبحث المثقفون «المتعاونون مع العدو» على تبرير موقفهم الجديد. العادات، التقاليد، المعتقدات. متبرأ منها في الماضي ومتجاهلة أصبحت معززة ومؤكدة بعنف»[9].

قد تشبه الكثير من أفكار فانون للأفكار التقليدية للفوضويين؛ نحو الحقد على المدينة وعلى المزايا المادية للمجتمع الرأسمالي الحديث، تمجيد الفلاحين وحثالة

البروليتاريا، وعبادة العنف والعفوية. وفي «توافق» مع الفوضويين يترك لنا كل من فانون، دوبريه وماركيوز انطباعا بأنّهم يخشون صفوف البروليتاريا المنظمة، وهم يرفضون في المقام الأول أن يسيطر مثل هذا الانضباط المنظم على السلطة السياسية. فالفوضوية ونزعة الصفوة أكثر جاذبية لمثقفي البرجوازية الصغيرة من العمل المنضبط المنظم الدؤوب لأعداد الملايين، وكسبهم إلى التغيير الثوري. والفوضوية، بالمفهوم اللينيني، هي الثمن الذي تدفعه حركة الطبقة العاملة مقابل خطايا الانتهازية. لكن هنالك أسباب خاصة لانبعث الاتّجاهات الفوضوية مؤخرا في البلاد الرأسمالية الكبرى، وهي اتّجاهات لا تعبر عن نفسها في شكل تنظيمي قوي، وإنّما في مجال عدد من الأفكار العامة التي يعد فانون ودوبريه وماركيز –بشكل ما– معبّرين عنها.

إنّ الفوضوية شكل من أشكال رفض الوضع القائم، لكنّها أيضا تعبير عن وجهة نظر البرجوازية الصغيرة. حيث يؤمن الفوضوي، في بحثه عن «الإنسان الطبيعي» الذي لم تلوثه المدنية، ولم تلوثه الرأسمالية الحديثة بشكل خاص، بأنّه يستطيع أن يجد مثل هذا الإنسان بين الفلاحين وحثالة البروليتاريا، الذي لم يشملهم ماديا الإنتاج الحديث. فمثل هؤلاء «الخارجون» مقيض لهم –في نظر الفوضوي– أن يؤدوا دور المتمردين على المجتمع. وهؤلاء «الخارجون» هم أيضا في نظر فانون الثوريون الطبيعيون الوحيدون[10].

وتبدو النواقص الحالية للرأسمالية بالنسبة للفوضوي تأكيدا لأفكاره، لكن هل يعد هذا كلّه إسهاما في نظرية فانون الثورية؟

يبدو أنّ فانون يرفض حركة الطبقة العاملة المنظمة، ولو كانت تعاليمه بشأن الطبقة العاملة ناشئة عن حرص مخلص وحقيقي للتغلب على أوجه ضعفها، ومساعدة العمال على أن يطرحوا عنهم أوهامهم، ويلقوا بثقلهم مع الثورة، لكن ذلك أمرا مفهوما تماما.

يقول فانون: «من بين الواجبات الأولى للمثقفين، المنضوين تحت تسمية 'الأنتلجنسيا'، وعناصر ديمقراطية لدول مستعمرة(بكسر الميم)، هي أن يساندوا دون تحفظ المطلب الوطني للشعوب المستعمرة(بفتح الميم). يتأسس هذا السلوك على معطيات نظرية هامة: الدفاع عن فكرة الإنسان، المنبوذ في الدول الغربية، رفض المشاركة المؤسساتية في انحطاط وإنكار بعض القيم.»[11]

فالماركسيون لم يترددوا أبدا في انتقاد الأخطاء في صفوف العمال. وعلى سبيل المثال حارب ماركس ولينين الانتهازية على الدوام، وأوضحا مرارا الأضرار الكبيرة التي تسببها الأفكار الإصلاحية للحركة، لكن فانون لا يتوجّه إلى حركة الطبقة العاملة. لأنّه لا يهتم بكسب العمال للثورة، بل بالعكس فهو – على غرار دوبريه وماركيوز– يرفض البروليتاريا ويدعو الطلاب والمثقفين والفلاحين إلى أن يفعلوا نفس الشيء. وليس العمال في نظره أناسا مضللين ينبغي مساعدتهم، بالعكس إنّهم يصورونهم عمليا كأعداء يقفون في الجانب الآخر من المتاريس. وحتى قراءة كتاب فانون(«من أجل ثورة إفريقية») تكشف عن افتقار واضح للاتصال المباشر بحركة الطبقة العاملة ومعرفتها. وهذا أمر لا يثير الدهشة لأنّه قرر أنّ الطبقة العاملة لم تعد قوة ثورية رئيسية[12].

ورغم رفضه لمشاركة الطبقة العاملة،إلاّ أنّه لم يرفض كل فصائلها الأكثر انضباط ونضالية، لأنّه يدرك بثقة وثبات، أنّ الطبقة البروليتارية تحاول تحقيق، بوسائلها المتواضعة، الفهم الاشتراكي وروح النضال والوحدة.

◄ 3- فانون ومستقبل الثورة الجزائرية:

من الأمور الرئيسية في فكر فانون آراءه عن دور الطبقات في الثورة الإفريقية. ولقد كان له فضل محاولة تحليل القوى الطبقية في إفريقيا عموما والجزائر خصوصا[13]، لأنّه ولقد كان له فضل محاولة تحليل القوى الطبقية لأنّه بدون هذا التحليل لا يمكن أن تتوفر إمكانية فهم طبيعة النضال الذي يواجه إفريقيا والجزائر على حد سواء، ويزيد من هذا الفضل قيامه بهذه المحاولة في وقت كان يسود فيه بين عدد من القادة الأفارقة إنكار وجود الطبقات الاجتماعية أصلا في هذه القارة.

لكن فانون يحذر من أنّ البرجوازية الإفريقية الفتية مستغرقة في الحصول على الثروة حتى لا تقدّر الخطر الذي يمثله هذا الوضع. ومن هذه الزاوية فإنّ إفريقيا في الواقع بالغة التعقيد. فحتى قبل عصر استعمار القرن العشرين لم تكن في أغلب بلاد إفريقيا الاستوائية تلك التقسيمات الطبقية الواضحة القاطعة التي كانت قائمة مثلا في آسيا، حيث تطورت النظم الإقطاعية لفترات طويلة. لقد جرّ الاتصال بأوروبا وتجارة الرقيق الخراب على إفريقيا، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقدم من الإقطاع إلى الرأسمالية، وتحقق تقدما تكنولوجيا هائلا، كانت أوروبا تدفع إفريقيا إلى أسفل، وتلقي بمجتمعها في الركود المؤقت. وعلى دماء العبيد الأفارقة وعظامهم ازدهرت الرأسمالية الأوروبية، وبخاصة رأسمالية بريطانيا وفرنسا. وانبعثت في أوروبا مدن جديدة، فتحققت الاختراعات، وأقيمت المصانع، وأقيمت المصانع، وتمكّنت أوروبا من أن ترسي أساس انتقالها إلى التطور الصناعي الحديث. ولكن في نهاية القرن 19م كان على القارة السمراء —وهي أصلا شعوبها تعاني التخلف الاقتصادي- أن تتلقى ضربة جديدة، فقبل أن تستعيد أنفاسها من أربعمائة عام من العبودية هبت عليها العاصفة الأمبريالية، ومن جيدي شل تطورها العادي، وفرضت تشويهات جديدة على اقتصادها[14].

ذهب الباحث الجزائري محمد الميلي، في كتابه 'فرانز فانون والثورة الجزائرية' إلى القول أنّ اعتناق فانون لمبادئ الثورة الجزائرية وأهدافها، كان عاملا أساسيا في تعقيد المهمة أمام كل باحث في شخصية فانون وفكره الثوري. وزاد في تعقيد هذه المهمة مجموعة من العوامل والتأثيرات يمكن إجمالها في ما يلي:

أولا: معظم الذين كتبوا عن فانون لم يكونوا مطّلعين على تاريخ الحركات الوطنية في الجزائر وعن اتّجاهاتها الفكرية، وقد أدى ذلك إلى الغفلة عن ربط ثورة نوفمبر بالجذور الفكرية التي تستند إليها، ممّا أدى إلى عدم العناية باكتشاف الخط الفكري للثورة الجزائرية.

ثانيا: كانت الثورة المسلحة في نوفمبر 1954م مفاجأة للجميع، وكان رد الفعل الفرنسي إزاءها هو إنكار أن تكون منبثقة من الداخل، لأنّ الاعتراف بمصدرها الداخلي؛ أي الاعتراف بالواقع، من شأنه أن ينسف كل الأرضية التي يستند إلى الاستعمار. وكان من نتائج هذا العامل أن دفع بالنقاش في اتّجاهات ابتعدت عن الطريق الأسلم، وهو طريق البحث في ماضي الحركات الوطنية الجزائرية الذي كان من شأنه أن ينير ثورة نوفمبر ويكشف عن حتميتها.

ثالثا: كثير من الذين بحثوا في فكر فانون، ركّزوا على كتاباته التي ظهرت في ظل الثورة الجزائرية، وبالتالي غفلوا عن إجراء مقارنة علمية وشاملة بين ما كتبه قبل انضمامه للثورة الجزائرية، وبين ما

كتبه بعد انضمامه لجبهة التحرير الوطني. وعليه، اعتبرت كتاباته خلال حرب التحرير، في نظر غالبية الباحثين والمؤرخين، البداية وهي النهاية التي توصل فكر فانون[15].

وتجب الإشارة إلى قضية هامة وأساسية، تتمثل في مدى تأثير الثورة الجزائرية في فكر فانون، بهدف فهم لماذا أثر فانون في هذه الثورة؟ فمادام أنّه تأثر بها وهضم الكثير من أفكار ومبادئ الحركة الوطنية الجزائرية، بل وأصبح بالفعل مواطنا جزائريا، وبالتالي سيصبح جزءا من هذه الثورة، مثل كثيرين من الجزائريين الذين أثروا في توجيهها وصياغة مواقفها المتباينة.

في هذه الحالة، يكون من الصعب، بل من المستحيل عمليا، «انتزاع» فانون من وسط التأثيرات التي تفاعل معها واعتبار كتاباته شيئا منفصلا، والاكتفاء بالكشف فقط عن مدى تأثيره هو في ثورة نوفمبر.

إنّ التركيز على هذه النقطة بالذات؛ أي سريان التأثير من فانون إلى الثورة الجزائرية دون محاولة الكشف عن الاتّجاه المقابل، يظل غير مفهوم عند الكثير من الجزائريين الذي عاشوا ثورتهم فكرا وممارسة.

وربما مرد ذلك الأمر يعود إلى أنّ أولى هذه العوامل هي أنّ فانون الكاتب والمفكر كان معروفا في أوساط اليسار الفرنسي قبل قيام الثورة الجزائرية، فكتابه 'بشرة سوداء، أقنعة بيضاء' صدر في باريس عام 1952م، وقدم له فرانسيس جونسون الذي كان من بين مريدي سارت آنذاك. وإذا كانت بعض أوساط اليسار الفرنسي محتكة في ذلك التاريخ ومن قبل ذلك التاريخ بالحركة الوطنية الجزائرية، فقد كانت تقتصر نشاطها على الدفاع عن المطالب السياسية لتلك الحركة دون أن تحاول الكشف عن جذورها ومحركاتها العميقة.

اشتهر فرانتز فانون، خاصة بعد ظهور كتابه الأول سنة 1952م، نظرا للنقاش الكبير الذي صاحبه، والواقع أنّ كتابات فانون كلّها من النوع الذي يثير النقاش الحاد والمثمر. ذلك أنّه يتفاعل مع ما يكتب بشدة، يتعلق بالفكرة التي يشرح؛ أي المبدأ الذي يعرض بعنف وبصفة كلية، ويكره ويعادي بعنف كذلك وبصفة كلية. فمثلا عندما يذكر في كتابه 'سوسيولوجيا الثورة' (Sociologie d'une révolution) ما رآه في المعامل والمزارع يدور من نقاشات بين الأوروبيين والجزائريين، حيث قال: «الرجال الجزائريون، في غالبيتهم، يتعرضون لانتقادات من طرف زملائهم الأوروربيين، أو بشكل رسمي أسيادهم. لا يوجد عامل أوروبي الذي، في إطار العلاقات الشخصية المتداخلة في الورشة، في المعمل او في المكتب، لا بد له من أن يطرح للجزائري أسئلة حول الطقوس: « أزوجتك محجبة؟ لماذا لا تقرر أن تعيش على النمط الأوروبي؟ لماذا لا تأتي بزوجتك إلى السينما، المقابلة، المقهى؟»[16] فهو هنا يتّخذ موقفا معاديا للبيض(الأوربيين) السارين من النمط المعيشي لأصحاب الأرض(الجزائريين)، واصفينهم بالرجعية والتخلّف، فلا مكان للموقف المتباين عند فانون، فهو عندما يعيش موقفا عنيفا مثل هذا ينفعل معه بجميع عواطفه، وكان هذا الانفعال الكلي ينعكس حتى على قراءته عندما يتلو للآخرين ما كتبه، فقراءته أبعد ما تكون عن الأسلوب «المنفصل» الذي يوحي بأنّ العلاقة بين القارئ وما يقرأ علاقة «موضوعية»، فكان حماسه لكتاباته ينفجر مع كل معنى وكل فكرة، بل وكل كلمة. كان يريد أن ينقل انفعاله إلى الكلمة، كان يريد من الكلمة أن تضمن نقل هذا الانفعال إلى القارئ. ومن هنا، كان ذلك الشعور الذي يلمسه القارئ لفكر فانون، بأنّ العلاقة بينه وبين ما يكتب تكاد تكون علاقة حسية.

فقد سجّل الذين كتبوا عنه تأثره بهيغل أو

ماركس، وبفرويد أو سارتر، أو حتى ميرلو بونتي، إلى آخر المدارس والتيارات الفكرية الغربية التي تأثر بها، رغم ما بينها من اختلاف. فلا شك أنّ وجود أصول غربية واضحة في كتابات فانون تساعد على «تقبّله» من طرف الفكر الغربي وتشحذ الاهتمام به، رغم ما فيه من عنف وثورية.

ولا يختلف إثنان في كون «أعنف» كتابات فانون صدرت في صحافة الثورة الجزائرية، خلال حرب التحرير، ضد اليسار الفرنسي، فقد كتب في 1957م مثلا، ثلاث مقالات حادة اللهجة بعنوان «المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية».

يقول مثلا في كتابه ‹سوسيولوجيا الثورة›: كل هذا الدم البريء الذي ينسكب في كل شرايين الأرض الوطنية قام بنهضة إنسانية جديدة ولا أحد ينكر ذلك. بعد أنّ تأكدت ‹لا تمد أبدا للعرب أبدا مليونا من أبنائها›، تعلن فرنسا اليوم أنّها لن تتخلى عن الصحراء أبدا ومصادرها. مثل هذه الحجج لا قيمة لها عند الجزائري. فهو يجيب بالفعل أنّ غنى دولة لا يشكّل عذرا لاضطهاده»[17].

نلاحظ أنّ فانون رغم أنّه ازداد بجزيرة لامارتينيك وترعرع في ربوعها، إلاّ أنّه اعتنق الثورة بكل تبايناتها، رغم عدم تشبعه بالثقافة العربية الاسلامية، كان مؤمنا بقضية الشعب الجزائري قبل قيام ثورته ومعتنقا لمبادئ ومشروع المجتمع.

وإذا كانت الجزائر وشعبها عرفا حياة سياسية نشيطة فيما بين الحربين العالميتين، فالفضل يعود إلى الاحتكاك بمثقفين ذو توجّهات غربية، وقد يكون فانون أحسن ممثل لهم.

كما أنّ فكر فانون سجّل تطورا مدهشا في ظرف أقل من عشر سنوات، ففي سنة 1952م ظهر كتابه الأول ‹بشرة سوداء، أقنعة بيضاء›، وفي سنة 1961م نشر كتابه الأخير ‹معذبو الأرض›(Les damnés de la terre) وهي سنة وفاته(أما كتابه ’من أجل ثورة إفريقيا‘، الذي ظهر بعد وفاته، فهو مجموعة مقالات كتبها فيما بين ذلك، وظهر معظمها في صحيفة ’المجاهد‘). ص.42 خلال هذه الفترة تطور فكر فانون من تمرد على الزنجة في نطاق الإقرار –بل والتبنّي– للإطار الفرنسي، إلى ثورة عميقة في نطاق حرب التحرير الجزائرية والتمسّك بمبدأ استقلال الجزائر، والإدانة الكاملة للاستعمار الفرنسي، إلى نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث.

إنّ كتاب ’معذبو الأرض‘ الذي ظهر في فترة حاسمة بالنسبة لتاريخ العالم الثالث، فقد شهدت الستينات تحقيق استقلال الجزائر، الذي كان بمفرده معجزة هزت الدنيا وشغلت الناس. وفي الوقت نفسه تميّزت الستينات بتحسس العالم الثالث للمشاكل الاقتصادية التي لم يكن بوسع الاستقلال السياسي الشكلي أن يحلّها.

لقد جاء كتاب ’معذبو الأرض‘ في فترة مناسبة إذن، لأنّه استطاع من خلال التجربة التي حصلها مؤلفه في ظل الثورة الجزائرية أن يطرح قضايا تعميق الثورة، والمظاهر السلبية للاستقلالات الشكلية، وأن يكشف النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث، وأن يفعل ذلك بما عرف عنه من لهجة حادة وأسلوب يعمل كالمبضع. ونظرا لحاجة العالم الثالث إلى عمل فكري ثوري يصدر عن صفوفه، فقد أولى ’معذبو الأرض‘ ذلك الاعتبار الخارق. بينما إهمال تسليط الضوء على مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون، فهو يرجع إلى عامل أساسي يرتبط بطبيعة الثورة الجزائرية وطابع صراعها مع الاستعمار.

فمن الأسس النظرية التي استنفذت إليها الثورة الجزائرية، هو الوجود المتميّز للشخصية الوطنية

الجزائرية، ووجود الدولة الجزائرية المستقلة، السابق على الاحتلال الفرنسي؛ أي قبل 1830م. ولذلك ما انفكت الثورة الجزائرية تؤكد في الكتابات الصادرة عنها خلال حرب التحرير، إنّ نوفمبر 1954م امتداد ووصل وتجديد لما كان عليه الأمر من قبل 1830م: وذلك يعني الإلغاء الكامل لفترة الاحتلال الاستعماري.

لكن الفكر الغربي لا يستطيع أن يلغي الاستعمار دفعة واحدة من تاريخه، بل هو يحاول تبرير الاستعمار بالترويج لفكرة «حتمية الاستعمار» من جهة، ولفكرة «إيجابية الاستعمار» من جهة أخرى. و»حتمية الاستعمار» الناتجة عن «قابلية المتخلفين للاستعمار» (وهي فكرة جازت على كثير من أبناء الدول المتخلّفة وردودها أثناء الاستعمار كما لو كانوا عثروا على كنز في حين أنّ أصولها الاستعمارية والعنصرية في الفكر الغربي واضحة)- هذه الفكرة تبرر الاستعمار أو مظالمه الأولى. وفكرة «إيجابية الاستعمار» تهدف إلى تبرير استمراره، أو بعبارة أدق إلى تبرير مقاومته لحركات التحرير واضطهاده للشعوب الطامعة لنيل الاستقلال.

وعلى هذا الأساس نجد أنّ الذين سلموا – من مثلي الفكر الغربي- بوجود الشخصية الوطنية الجزائرية خلال حب التحرير، حاولوا أن يجعلوا تكوينها حديثا ومرتبطا في الوقت نفسه بالوجود الاستعماري. ولم نجد فيما أطلعنا عليه من كتابات أنّ باحثا غربيا في تاريخ الجزائر الحديث حاول أن يتعرّف على مدى الدور الذي قامت به في التهيئة لمقاومة الاستعمار، تيارات وطنية نبعت من داخل المجتمع، بعيدة عن أيّ تأثير خارجي.

فعلا لقد جلب الاستقلال للرجال المستعمرين جب الضرر المعنوي والكرامة الخالصة، لكن لم يسمح لهم الوقت بعد لتكوين مجتمع وإنجاز وتأكيد القيم. ومنه، فقد كان فانون يأمل مستقبلا زاهرا للثورة الجزائرية، التي ردد أكثر من مناسبة أنّها ستدوي في العالم الثالث والعالم أجمع، وذلك بتحقيق أبرز أهدافها المتمثلة في تكريس مبدأ تكافؤ الفرص بين أفراد الشعب الجزائري في ظل عدالة اجتماعية وأخوة شاملة بين أفراد المجتمع الذي يتقاسمون هموم الوطن الواحد في ظل التاريخ والمصير المشتركين.

◀ خاتمة

حاول فرانتز فانون الإجابة عن سؤال كبير وهو كيف بإمكاننا أن نصنع ثورة؟ وهو السؤال الذي سيطر على جل تفكيره منذ اعتناقه لمبادئ الثورة الجزائرية، آملا في أن يشهد تغييرا ثوريا حقيقيا. وهكذا حاول فانون لعب دور حاسم في التنظير للثورة الجزائرية نموذج للثورات في الدول الآفروآسيوية. وهنا تظهر عفويته في تكوين الطليعة السياسية والنضال الجماهيري.

لقد آمن فانون أنّ الثورة الجزائرية لم تكن فقط قد نجحت في إدخال هذا التعديل الجذري على نظرية اليسار الفرنسي، الذي كان عضوا فيه، ولكنّها كانت قد نجحت في بلورة بعض المفاهيم وخطط المستقبل.

بمعنى آخر، إنّ الثورة الجزائرية في تحليلها لدور الجزائر في مواجهة الاستعمار والأمبريالية، وفي تعبئتها لطاقات الشعب خلال حرب التحرير، لم تكن تقتصر على التذكير بالجانب التاريخي من قضيتها، الذي يتمثل في الوجود السابق على الاستعمار وفي استمرار الشخصية الجزائرية، بل كانت في ذات الوقت تلفت النظر إلى مدارات الصراع بالنسبة للمستقبل.

تأثر فانون بحركية الثورة الجزائرية أيّما تأثر، فأدرك مدار الصراع وعرف أنّ كفاح الشعب الجزائري يعرض للخطر مصالح استراتيجية وسياسية اقتصادية ضخمة، وأنّ على هذه الثورة أن تواجه نظاما لا

يتردد في تعبئة جميع قواه من أجل القضاء عليها.

كما تيقّن واعتنق فكرة أنّ الشعب الجزائري ليست أمامه أيّ طريق لاسترجاع حقوقه إلاّ طريق الكفاح المسلّح الذي يجب أن ينتهي بالقضاء على النظام الاستعماري.

رأينا ذلك التحول في فكر فانون، وهو تحول ثوري، وهو ناتج عن تأثير الثورة الجزائرية فيه، عندما عايش معاركها وأصدائها المدوية. فكان قد تعرّف أثناءها على جوانب كثيرة من القضية الجزائرية، وأتيح له أن يشاهد عن كتب ما تعرّضت له الثقافة الوطنية الجزائرية من مسح وتشويه، وأن يلحظ في نفس الوقت الدور الذي لعبته هذه الثقافة في تحريك الثورة المسلّحة.

بل راح يردد في كتاباته دائما، بأنّ الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها، وأنّ النهاية الطبيعية لإرادة الحرية هذه هي التحرير الكامل للتراب الوطني.

◄الهوامش والإحالات

1- الميلي محمد، فرانز فانون والثورة الجزائرية، دار الثقافة، بيروت، ط.2، 1980، ص.ص. 11-10.

2- المرجع السابق، ص.ص. 13-12.

3- وهو كتاب ألّفه فرانتز فانون سنة 1952م، حيث حاول فهم علاقة الأسود والأبيض بكل قيمته الإشراقية؛ ذلك أنّ العنصرية، على الرغم من الفظاعات التي ملأت بها العالم، تبقى مسألة مطروحة في المستقبل أيضا.

4- إيمي سيزار(Aimé Césaire) كاتب إفريقي شارك في الحركة الفكرية والأدبية الإفريقية وساعد في تحرير إفريقيا من الاستعمار الأوروبي.. وقد أسس هو وجماعة من الشعراء الأفارقة ما عرف بالأدب الأسود.. حاول سيزار أن يرد الاعتبار للإنسان الأسود، لأنّه كان من أكثر الأشخاص تضررا حيث تعرضوا للاضطهاد والعبودية معتمدا في ذلك على أساس فلسفي، وهو أنّ الإنسان الأسود لعب دورا هاما في الثقافة الأوروبية. حيث قال الشعر في الفترة الواقعة ما بين 1930م-1950م التي تعد واحدة من أخصب الأزمنة التي عرفته الشعر الحديث في الغرب بعد سيطرة الرواية. وهو شاعر خصيب الخيال، غزير الإنتاج وقد تميّزت أعماله الشعرية والمسرحية بالحنين الدائم إلى أرض إفريقيا. صدر لإيمي سيزار ثمانية دواوين شعر هي: دفتر العودة إلى الوطن(1930)، الأسلحة الخارقة(1948)، شمس مقطوعة العنق(1948)، جسد هالك(1960)، الأغلال(1961)، ساقية(1976)، بيان (1961)، أنا الطارق(1982)، كما صدرت له أربع مسرحيات هي: مأساة الملك كريستوف (1963)، الكلاب تصمت!(1947)، موسم في الكونغو(1966)، العاصفة(1968)...

5- المرجع السابق، ص.ص. 21-17.

6- Fanon Frantz, Peau noire, masques blancs, les éditions du seuil, Paris, 1952, p.30.

7- ونحن نقصد من عاصروه أمثال دوبريه وماركيوز.

8- ووديس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.1 الثورة والطبقات. مدخل لقراءة نظريات فانون، دوبريه وماركيوز، تعريب: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1978، ص.ص.39-37.

9- Fanon Frantz, Pour la révolution africaine, écrits politiques, Editions la découverte, Paris, 2001, p.54.

10- المرجع السابق، ص.ص. 47-40.

11- Fanon Frantz, Pour la révolution africaine, écrits politiques, Op. Cit.,p.87.

12- وودیس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.1 الثورة والطبقات. مدخل لقراءة نظريات فانون، دوبريه وماركيوز، ص. 48.

13- إنّ أغلب كتابات فرانتز فانون، خاصة في جريدة 'المجاهد'، خلال حرب التحرير، أظهرت اعتناق فانون لمبادئ الثورة الجزائرية، حيث أبدى فيها موقفا واضحا ومساندا لها، رغم بعض المواقف المتذبذبة للحزب الشيوعي الذي كان عضوا فيه،، فقد أبدى، في أكثر من مناسبة، إدانته لليسار الفرنسي قبل الثورة وأثناءها.

14- وودیس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.2 فانون والثورة في إفريقيا، تعريب: محمد مستجير مصطفى دار الفارابي، بيروت، 1978، ص.ص.28-23.

15- الميلي محمد، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص.32.

16- Fanon Frantz, Sociologie d'une révolution, petite collection Maspero, N° 28, première édition, Paris, 1959,p.22.

17- Fanon Frantz, Sociologie d'une révolution, Op. Cit. p.13.